الفنون النسيجية الجزائرية في العهد العثماني

دة. شريفة طيان
معهد الآثار- جامعة الجزائر

ملخص :

تم ملاحظة على ضوء المعطيات المادية تنوع المنسوجات الخاصة باللباس والتأثيث فاستعملت الأنواع البسيطة والعادية والممتازة على حد سواء. كما تنوعت الملابس والمناديل والأحزمة والأوشحة والستائر والحاشيات الحريرية الممزوجة بخيوط الذهب والفضة وغيرها ، ومعظمها مصنوع من الحرير ومطرز بالخيوط الحريرية والذهبية ومزينة بأهداب في غاية الجمال. وكانت تباع بأغلى الأثمان عن تلك المصنوعة في فرنسا وانجلترا.

المقدمة

لقيت صناعة المنسوجات اهتماما ورواجا كبيرين من طرف المسلمين لارتباطها بحياتهم اليومية وإقبالهم الشديد على اقتناء الملابس، وتزيين منازلهم من الداخل وصنع الخيام وغيرها[1].

اشتهرت معظم المدن الإسلامية في المشرق والمغرب في العهود الأولى بإنتاج أنواع مختلفة من اللباس وصناعة النسيج، عرفت باسم المدن المختصة بإنتاجها. فانفردت مدينة الموصل بنوع خاص من

المنسوجات الحريرية المشهورة باسم "الموصلي"، الذي ذاع صيته عند الأوروبيين باسم "الموسلين"[2](Mousseline).

أما بالنسبة للمغرب الإسلامي فقد أنتجت صقلية والأندلس وبلاد المغرب مصنوعات فاخرة ومتنوّعة من المنسوجات الحريرية، فمنها الموشي ومنها ما هو مزين برقاقات الذهب، تتميز هذه المنسوجات بأن سداها أو لحمتها من الأسلاك الذهبية والفضية، للأغراض الزخرفية. بلغت صناعتها أوج عظمتها الفنية وذلك عندما حلت المنسوجات الحريرية والذهبية ذات القيمة العالية محل القطع النقدية في التبادلات التجارية[3]. وقد تواصلت صناعة المنسوجات في القرون التالية، فعند قيام الدولة العثمانية وازدهار الحياة الاقتصادية بها ولا سيما في القرنين 9-10 هـ/15-16 م، بعد خضوع بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب لها، بلغت صناعة المنسوجات درجة كبيرة من التقدّم والازدهار، فظهرت مصانع أهلية للنسيج تمدّ القصر بما يحتاج إليه من أقمشة[4]، كما عرفت الأقمشة العادية كالكتان والقطن والأقمشة الحريرية المتمثلة في الديباج والدمشقي والقطيقة[5].

I- المواد الأولية ومراكزها

تشتمل المواد الأولية على أنواع المنسوجات المستعملة في الصناعة بالإضافة إلى مواد الصباغة التي لا تقل أهمية عنها فبدونها لا تتم الصناعة أصلا، وأهم هذه الأنواع الكتان والقطن والصوف والحرير ومشتقّاته.

1- أنواع المواد النسيجية

أ- الكتان

يعتبر الكتان أول هذه المواد إذ تعتبر أليافه أقدم الألياف استعمالا في النسيج، وقد كان معروفا في الحضارات المصرية والبابلية القديمة كمادة نسيجية وكطعام كونه نبات زيتي يستخرج الزيت من بذوره[6]. أما بالنسبة للجزائر فقد كانت هذه المادة متوفّرة خاصة في منطقة الحضنة وسهل متيجة ووادي الشلف وسهول بونة (عنابة) على وجه الخصوص[7]، فبرع العرب في صناعته حيث كانوا يستخدمونه لذاتهم ولسد حاجياتهم[8].

ب- القطن

أما فيما يخص مادة القطن فقد عرفت بلاد المغرب زراعتها بعد الفتوحات الإسلامية فاشتهرت به مناطق برقة وطبنة والمسيلة ونقاوس ومستغانم وسهول الشلف[9]. وأطلق العرب كلمة " قطن" على الشعيرات النباتية التي انتشرت في عمليتي الغزل والنسج، ويتميز القطن بصلابته التي تزداد تماسكا عند الابتلال ولا يفقدها بالاحتكاك، أما لونه فهو اللون الأبيض[10].

ج- الصوف

أما مادة الصوف التي مصدرها قطعان المواشي، فكانت من الكثرة بحيث كان يصدّر كميّة منه إلى الخارج، وتحدّث بعض

الرحالة الذين أقاموا بالجزائر عن صوف البلاد الذي عرف بجودته ونقاوته حيث يبدأ النساجون في نسجه مباشرة[11]. لقد اشتهر صوف الجزائر بنوعيته الجيّدة بحيث يقبل كل الألوان التي يراد صبغه بها، ويمكن اتخاذه عند رؤيته للوهلة الأولى على أنه موسلين من النوع الجيّد، كما يتميّز بطوله ورقّته[12]، ولعل أجود أنواع الصوف هو صوف منطقة الهضاب السهلية الواقعة بين التل والصحراء والممتدة من تلمسان وتاهرت غربا إلى الحضنة والزاب شرقا، وقد كثرت مشاغل غزل الصوف بمدن بونة والجزائر وبرشك ووهران وقلعة بني حماد وتيهرت وتلمسان[13]، وكانت النساء تحكن وتغزلن وتنسجن الصوف[14].

د- الحرير ومشتقّاته

اشتهرت كل البلاد الإسلامية بمادة الحرير، الذي يقوم إنتاجه على زراعة التوت وتربية دودة القز. وقد ساعدت الفتوحات الإسلامية على انتشار تربية دودة الحرير في كامل حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث تسمح الشروط المناخية بغرس أشجار التوت خاصة في جنوب سوريا وجزيرتا قبرص وصقلية وجنوب تونس وعلى وجه الخصوص اسبانيا الجنوبية التي نقل إليها السوريون دودة القز بعد أن انتقلت من مواطنها الأولى بالصين عن طريق التجّار والرحّالة[15]. أما في الجزائر فقد اشتهرت بصناعته مدن كثيرة خاصة الجزائر وشرشال وبرشك وتنس حيث تربية دودة القز المنتشرة بها[16].

يلاحظ أن إنتاج الحرير ظل محدودا بسبب الاضطرابات، ولم يعرف تطوّرا حقيقيا إلا في مدينة الجزائر والمناطق المحيطة بها وذلك بعد هجرة الأندلسيين إليها والذين كانت لهم دراية كبيرة بزراعة شجرة التوت ومعالجة شرانق دودة القز[17]، كما كانت النساء تشارك في تربية دودة القز والحرير، الذي يستعمل في المصنوعات الجزائرية والتي تتغذى مع الحرير القادم من المشرق بحيث يعطي منتجات رائعة وأغلى ثمنا من حرير مدينة ليون الفرنسية[18]. لكن سرعان ما ضعف الإنتاج المحلي وأصبحت الجزائر تعتمد أساسا على خام الحرير المستورد عن طريق البحر من أزمير وصالونيك وغيرهما[19].

لقد صنع من مادة الحرير أنواع كثيرة كالديباج والدمشقي والتافتاه والموصلي والقطيفة وغيرها من الأنواع.

- الديباج

يعتبر الديباج[20] من المنسوجات المزركشة والموشاة بخيوط الذهب والفضة مصنوع من الحرير الخالص، يستعمل فيه سداة واحدة وأكثر من لون واحد من اللحمة للزخرفة كما يكون ضمنها خيوط معدنية تظهر في أجزاء الزخرفة وتختفي في قفا المنسوج، وتكون الأرضية غالبا من خيوط السدى ولذلك يستعمل هذا النوع من المنسوجات من وجه واحد نظرا لاختلاط ألوان اللحمة في الوجه الآخر منها[21].

- الدمشقي

هو نوع من المنسوجات الزخرفية اشتهرت بصنعه مدينة دمشق فنسب إليها والذي اشتق اسمه منها، يخصّص في هذا النوع من المنسوجات سداة واحدة ولحمة واحدة كلاهما من لون واحد أو لونين مختلفين، وتحدث الزخرفة فيه عن طريق استعمال أطلس من السدى أو بعبارة أخرى إظهار أكبر عدد من خيوط السدى في أجزاء الأرضية لإخفاء خيوط اللحمة تحتها، ثم أطلس من اللحمة في أجزاء الزخرفة لتختفي خيوط السدى تحت ذلك بإظهار أكبر قدر ممكن من اللحمة في أجزاء الزخرفة وبالعكس في الوجه الآخر من المنسوج[22].

- التافتاه

يرجع أصل التافتاه إلى إيران، ويتميّز بتشكيل تقاطع بسيط من السدى واللحمة بحيث يكون نسيجه واضح وشكله العام أملس كما يكون متموّجا بحيث تظهر به دارات ذات انعكاسات[23].

- الموصلي

ينسب إلى مدينة الموصل بالعراق، ينسج هذا النوع من الحرير باستعمال خيوط القطن والصوف بالإضافة إلى الخيوط الحريرية، بحيث تكون خيوطه مشدودة وقماشه رقيق صالح للاستخدام في إغراض كثيرة في الأفرشة بأنواعها والستائر ومناديل اليد وبعض أقمشة الملابس[24].

- **الأطلس**

يعرف باسم الساتان يتحصّل عليه باستعمال ترتيب خاص في تحريك الخيوط بحيث يصبح لامعا وأملسا، وقد صنع من الأطلس عددا من الأقمشة، كالقطيفة التي تكون أرضيتها من الأطلس خاصة النوع المصنوع في مدينة جنوا الإيطالية التي اشتهرت به[25].

- **القطيفة**

تعتبر القطيفة من المنسوجات الوبرية التي تختلف بوجه عام عن الأنسجة العادية من حيث مظهرها وذلك بوجود بروز وبري الشكل على سطحها نتيجة إضافة خيوط خاصة على سطح المنسوج[26].

لقد تطوّرت طرق نسج القطيفة في مدينة جنوا كما سبق ذكره، حيث يمزج في صنعها خيوط الحرير والقطن والصوف والكتان والقنب والجوت، مع أن هذا الصنف من المنسوجات الحريرية غير الخالصة كان معروفا قديما، إلا أنه عرف انتشارا واسعا مع القرن10 هـ/ 16 م[27].

عرفت القطيفة باسم "المخمل" وقد لقيت ازدهارا كبيرا في مدن الجزائر وشرشال وبرشك[28]. وقد عرف اسمان لحرفيين مسلمين وهما "مصطفى المكناج" و"الحاج الصغير" في القرن 13 هـ/ 19 م، اللذان اختصا في صناعة القطيفة[29]، مما يدل على وجود صناعة جزائرية بأيادي مسلمة، وقد كان صانع القطيفة يسمى القديفاجي[30].

- **الالاجا**

هو نوع من القماش المنسوج من القطن والحرير معا، وقد ظهر لأول مرة في العصر العثماني، وقد كان يزدان بأشرطة رفيعة ذات ألوان متعدّدة تزخرف مساحة النسيج كله[31].

ويرتبط بصناعة النسيج صباغة الملابس التي اشتهرت في بعض المدن الجزائرية المعروفة بجودة مياهها، حيث كان يتم صباغة الملابس والبرانس الصوفية باستعمال مواد طبيعية.

2- مواد الصباغة :

ترتبط مواد الصباغة بالمواد الخام التي تصبغ بها الملابس والمنسوجات حيث يمكن تثبيتها على ألياف النسيج ليكسبه لونا، وقد انتشرت زراعتها في العالم الإسلامي وتطورت الطرق التقنية الخاصة بها حتى اكتسبت شهرة عالمية من حيث تعدّد أنواع المنتجات واختلاف الألوان[32]، وكانت مواد الصباغة تشكل من ثلاثة عناصر نباتية وحيوانية ومعدنية.

لقد جلبت المنسوجات الحريرية والصوفية المصبوغة بالأصباغ النباتية في الجزائر أنظار المهتمّين بالألوان وذلك لمتانتها وجمالها التي حافظ على تقاليدها الصنّاع الأندلسيون الذين استقرّوا خاصة في مدن دلّس وشرشال والبليدة والجزائر، التي اشتهرت في صباغة الملابس والبرانس الصوفية حيث كانت ملابسهم تحمل الصبغ بشكل جيّد[33].

كان الصبّاغون يقومون بصبغ الأقمشة داخل الدكاكين بعيدا عن التجمّعات السكّانية لأنها كثيرا ما تنبعث الروائح الكريهة الناتجة عن معالجة الأصباغ[34].

وقد اعتنى الجزائريون بصباغة منسوجاتهم الحريرية على وجه الخصوص لتوفر المواد النباتية التي تعطي للمنسوجات ألوانا متينة وراسخة[35]. كما أبدع الصنّاع في صباغة الصوف المتوفّرة بكثرة في الجزائر، وقد كانت عملية الصباغة تتم مباشرة بعد غزلها بطرق وأساليب بسيطة ولكنها متقنة، وذلك باستعمال مواد محلية كغبار المعادن والنيلة(36). ومن أهم أنواع المواد التي تدخل في صباغة الأقمشة هي :

أ- الأصباغ النباتية :

- **النيلة :** وهي أولى مواد الصبغ الطبيعية التي تم استعمالها، تتشكل أساسا من بقايا نباتية سهلة التبلور حيث تتبخر في درجة حرارية مرتفعة وتعطي اللون الأزرق. لا يمكن لمادة النيلة أن تقوم بعملية الصباغة وهي على شكل بلوري أزرق لأنها لا تذوب في الماء، لذلك تتم الصباغة في مادة النيلة البيضاء المستخرجة من النيلة الزرقاء المجفّفة، بحيث تحلل المادة عن طريق عملية التخمير بواسطة العسل والنخالة، عندها توضع في أحواض عميقة لكن القماش يوضع بعيدا عن الهواء حيث يتشبّع بالمادة ثم يعرض للهواء، فتتأكسد الصبغة وتعطي للقماش اللون الأزرق، ومن

مزايا النيلة أنها لا تحتاج إلى مثبّت لذلك استخدمت على نطاق واسع في صباغة الصوف والقطن والكتان، كما أنها استعملت كقاعدة لدرجات من الألوان مثل البني والزيتوني والأسود[37].

- **الزعفران** : تؤخذ هذه الصبغة من زهرة الزعفران التي تمتاز بحجمها الصغير ورائحتها الزكية، وهي ذات صبغة ذهبية قوية مركّزة[38]، وهي متداولة بكثرة في الجزائر.

- **قشور الرمان** : تعتبر قشور الرمان رخيصة الثمن تعطي لونا أصفرا ولكنه غير ثابت كالزعفران، وإذا استعملت هذه الصبغة مع الصوف الأبيض فإنها تنتج لونا أصفرا يميل إلى الخضرة، أما إذا أضيفت إليها نباتات أخرى فأنه يعطي ألوانا متنوعة كالبرتقالي والبني والأسود[39].

ب- **الأصباغ الحيوانية** :

- **الدودة القرمزية** : هي حشرة تعيش وتتغذى وتتكاثر على شجرة البلوط الدائم الاخضرار، حيث تحتوي إناث هذه الحشرة على المادة الفعالة لإنتاج هذه الصبغة، تحضّر الصبغة بجمعها ووضعها في الماء الساخن ثم تجفّف تحت أشعة الشمس أو في الموقد، ومسحوق الدودة القرمزية يعطي لونا أحمرا أرجوانيا يتميز بثباته ضد الضوء ويصلح لصباغة الصوف والحرير، ونادرا ما يستخدم في القطن[40].

- **المريق** : وهو نوع من الأسماك ذات الغطاء الصدفي الموجود بكثرة في البحر الأبيض المتوسط، يتحصل منه على ألوان عديدة عند خلطه مع أملاح النحاس والحديد، وتعتبر صبغته من أغلى الأصباغ القديمة ذات اللون القرمزي[41].

ج- **الأصباغ المعدنية** : تشمل الأصباغ المعدنية عدة أنواع وهي كما يلي :

- **المغرة** : هي مادة معدنية تعطي اللون الأصفر واللون الأحمر.

- **الزنجار** : وهو النحاس المخضر(خليط استتات النحاس) ويعطي اللون الأخضر.

- **الشب** : وهي مادة تتميز بخاصيتها الكاوية التي تحافظ على عدم تغير الأصباغ[42].

II- مراكز الصناعة النسيجية

تطوّرت الصناعة النسيجية تطورا ملحوظا لا سيما مع مجيء المهاجرين الأندلسيين واستقرارهم بالجزائر حيث أنجزوا أعمالا متقنة وجيّدة الصنع، فأسندت إليهم الأشياء الفاخرة لصنعها لخبرتهم العالية، كما جدّدوا صناعات عديدة خاصة تلك المتعلّقة بالحرير[43].

وقد أنتجت الورشات الجزائرية المعروفة باسم دراز[44] كل أنواع المنسوجات القطنية والكتانية والصوفية والحريرية والمخملية، التي اتّصفت بالتنوّع، كما اشتهرت الأقمشة الحريرية الخفيفة التي ذاع صيتها في شمال أمريكا. لقد كانت هذه الورشات تقدّم أشغالا

جيّدة ومتقنة بكميات قليلة لكنها باهظة الثمن، وأخرى بسيطة تلبيّ حاجيات عامة المجتمع[45].

أما فيما يخص المراكز الصناعية عامة، فقد كانت مدينة الجزائر تمثل أهم مركز في الصناعات النسيجية بينما كانت مدينتا قسنطينة وتلمسان فرعيتين، وتمركزت ورشات نساج الحرير في سوق الحرّارين، وقد لمعت أسماء في هذا المجال مما يؤكد وجود صناعة راقية وذات جودة عالية حسب شهادات الكثير من الأجانب ممن زار الجزائر ومكث فيها، ومن بين هؤلاء الحرّارين نذكر على سبيل المثال عمر القبايلي ومحمد المعاتقي وحاج الرايس وحاج إبراهيم وأحمد شيخو وأحمد سمين. أما بالنسبة للمطرّزين فقد كان لهم كذلك حي خاص بهم وبرع الكثير منهم في إنتاج أجمل القطع ومن بينهم، وليد لكشال مصطفى ومحمد بلعباس وغيبي ولعبي دريج وحميدو سيدهم ومحمد خوجة ووليد بقطاش ووليد الخادم وأحمد عوسة[46].

لقد أنتجت هذه الورشات مصنوعات نسيجية متعدّدة الاستعمال ومتنوّعة الأشكال تخص لباس المرأة والرجل معا، وأخرى تخص مستلزمات البيت الجزائري في تأثيثه. فكان منها البسيط والمتوسط والممتاز حسب مقدرة كل فرد وإمكانياته المادية. كما راجت صناعة الشاسية الخاصة بالرجال والقلانس النسوية المتنوعة خاصة تلك المصنوعة من القطيفة[47].

علاوة على ملابس البدن المتنوّعة والمناديل والأحزمة والأوشحة والستائر وغيرها من الحاشيات الحريرية المحلاة بخيوط الذهب والفضة وغيرها. وكانت معظمها تشكل من الحرير وتطرّز بالخيوط الحريرية والذهبية وتزيّنها أهداب في غاية الجمال، فقد كانت أسعارها أغلى ثمنا من مثيلاتها المصنوعة في فرنسا وانجلترا[48]، يدل على جمالها وجودة صنعها من حيث مادتها وألوانها الثابتة، مما جعل إقبال التجار الأوربيين عليها كبيرا ونفس الشيء يقال عن المناديل المصنوعة في مدينة البليدة التي كانت تصدّر إلى مدينة الجزائر[49]، والفوطة[50] التي صنعت من أرقى الأقمشة وأصبحت لها شهرة لكثرة بيعها.

أما فيما يخص الأنسجة الصوفية المعتمدة على الإنتاج المحلي من الصوف فكانت تستخدم في صناعة البرانس والأغطية والحياك التي يصنع أجودها في مدينة قسنطينة، بالإضافة إلى الأوشحة والسجاجيد والجلابيب والأحزمة المصنوعة في كل من مدن قسنطينة وتلمسان ومعسكر[51]، والتي كانت تصدّر إلى بلاد المشرق، وكذا الأحزمة الحريرية التي يرتديها الأتراك بكثرة، ويدخل ضمن الأنسجة الصوفية الأقمشة المصنوعة من شعر الماعز التي استعملت خصّيصا في تغطية الخيام، كانت المرأة الجزائرية تصنعها بطريقة تلفت الانتباه، إذ تستعين بأصابعها التي تمرّرها بين خيوط السدى وخيوط اللحمة دون الاستعانة بالمكوك[52]، كما

انتشرت صناعة البرانس في أغلب جهات البلاد وإن كان أشهرها برانس الأطلس الصحراوي وزمورة ومعسكر[53].

III- أنواع المنسوجات الجزائرية

تعتبر صناعة النسيج من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها وتباين طرزها في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث ورث الجزائريون حبهم وإقبالهم على ارتداء واقتناء الملابس الثمينة والفاخرة، المصنوعة من الديباج والدمشقي والأطلس والقطيفة وأنواع أخرى من الحرير، كما عرفت هذه الفترة انتشار تقاليد وعادات جديدة مع دخول العثمانيين ومجيء الأندلسيين حيث تغيّرت أنماط الحياة وطريقة العيش وظهرت نماذج مختلفة من الملابس التي انتقلت من البساطة إلى الترف.

كما تأثّر المجتمع الجزائري بطراز اسطنبول، الذي جلب إلى الجزائر بواسطة المبعوثين العائدين من مهماتهم التي كانوا مكلّفين بها لدى البلاط التركي[54].

فقد تميز لباس الجنسين بما فيه لباس الرأس والبدن والقدم، بالتنوّع والكثرة والثراء. فتنوع لباس الرأس عند المرأة وأشتمل على مجموعات خاصة بالحمّام والقلانس والبراقع والأوشحة التي كانت تطرّز بالذهب والفضة والحرير وتزيّن بالقطع النقدية الذهبية.

أما لباس البدن فيحتوي على مجموعات كبيرة خاصة الجلابيب التي تضم القمصان والدرة(55)، التي أصبحت تعرف فيما

بعد بالجبة حيث لبستها المرأة الجزائرية طول العهد العثماني ثم تخلّت عنها في القرن 13 هـ/19 م، إلا أن المرأة في مدينة قسنطينة حافظت عليها وطوّرتها[56]. كما تضم ملابس البدن أيضا أنواعا عديدة ومختلفة من السترات التي تشكّل القسم الأكبر من خزانة المرأة والتي يضاف إليها أنواع مختلفة من السراويل والفوط[57] والأحجبة التي تضم الحايك بألوانه وأشكاله تبعا لكل طائفة من النساء[58].

كما يمكن تقسيم ملابس الرجل إلى ملابس البدن وملابس الرأس التي هي عبارة عن عمائم وقلانس التي تضم الشاشية والطربوش وغيرها.

أما بالنسبة للباس البدن فهي متنوّعة ومتعدّدة إذا ما قيست بأغطية الرأس، وهي تضم القمصان التي تطرّز في مستوى الأطراف والفتحات بخيوط حريرية[59]، يضاف إليها الدرة التي تلبسها المرأة كذلك، وهي عبارة عن نوع من القمصان مصنوعة من نسيج خفيف أبيض اللون بها أكمام عريضة[60]، ويدخل ضمن ملابس البدن أنواع مختلفة من السترات، أولها الصدرية وهي غير مفتوحة لا من الأمام ولا من الخلف وقد شاع استعمالها بين حكام مدينة الجزائر وأغنياءها[61]، يضاف لها البدعية المعروفة في جميع بلدان المغرب، والتي كانت تلبس خاصة من طرف الحكام والأغنياء، وهي عبارة عن سترة مصنوعة من الجوخ أو القطيفة مطرّزة بخيوط ذهبية، لا تحتوي على أكمام وهي مفتوحة من الأمام وتغلق بواسطة أزرار[62]،

يضاف كذلك الغليلة والقفطان والجبادولي والقباية والمعاطف والحايك والبرنوس.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة الجزائر كانت تموّن كل البلاد بأنواع الملابس، والمنسوجات المصنّعة، فاختصّ بعض الصناع في إنتاج بعض الصناعات كمحمد الطرابلسي الذي اختصّ في صناعة الحايك الحريري الخاص بالأعراس، ووليد شيخو الذي كان يصنع المحارم والمناديل[63]، التي اشتهرت بجودتها وإتقان صنعها.

1- ملابس الرأس :

أ- الشاشية (صورتان رقم : 1 و2)

هي لباس منسوج دائري حول الرأس شائع في أوساط المسلمين الشباب بالمشرق والمغرب، ازدهرت الشاشية الجزائرية الحمراء بعد اعتناء بعض العائلات الأندلسية بها، وقد كانت مدينة الجزائر تتحكم في إنتاجها في بلاد المغرب وكانت لها مشاغل خاصة بحي باب الوادي، وفي أواسط القرن 12 هـ/ 18 م، انحطت نوعيتها ولم يقبل على ارتداءها إلا عامة الناس وهذا ما سمح للشاشية التونسية أن تغزو أسواق مدينة الجزائر[64].

كما لبست المرأة الجزائرية الشاشية، وهي عبارة عن قبّعة مستديرة أو مخروطية الشكل، يقوم بصنعها السرّاج وهي عادة ما تصنع من القطيفة والديباج والساتان والدمشقي، وتطرّز بالذهب أو

الفضة كما ترصّع بالأحجار الكريمة والمجوهرات حتى يثقل وزنها وتصبح صلبة مما يستلزم تبطينها من الداخل[65]، وهذا النوع كان مقتصرا على المرأة الغنية حيث تلبس في أيام الأعراس والحفلات.

في القرن 11 ه/ 17 م، لبست المرأة الشاشية على شكل قصعة مصنوعة من القطيفة التي كانت غالبا ما تزيّن بقطع نقدية ذهبية أو فضية مثبّتة في شكل دوائر متمركزة[66]، وفي القرن 12 هـ/ 18 م قل اهتمام المرأة بها حيث أصبحت تغطيها بوشاح، وظلّت تلبس من طرف الفتيات فقط. كانت الشاشية تلبس كذلك في مدينتي قسنطينة وتلمسان ذات الشكل المخروطي توضع بشكل مائل، إلا أن الشاشية في تلمسان كانت أكبر حجما وأكثر زخرفة من تلك المصنوعة في مدينة قسنطينة[67].

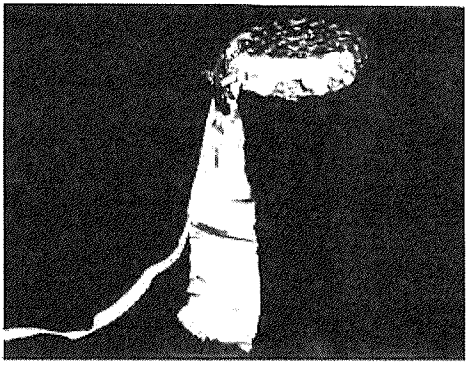

صورة رقم : 1- شاشية مرصعة بالنقود

محفوظة بمتحف فنون إفريقيا وأوقيانيا بباريس (فرنسا)

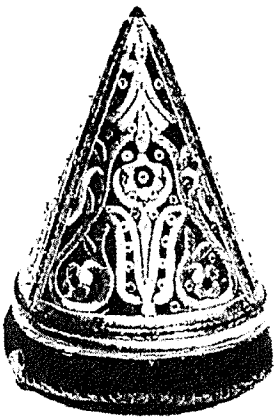

صورة رقم : 2- شاشية تلمسانية

محفوظة بمتحف فنون إفريقيا وأوقيانيا بباريس (فرنسا)

ب- البنيقة

هي قلنسوة ترتديها المرأة بعد الحمام وخلال الأشغال المنزلية، وقد تحتفظ بها طول اليوم لتحافظ على شعرها[68]، وهي مصنوعة من الكتان أو القطن ومطرزة من الأمام بالحرير المتعدد الألوان. تتشكل البنيقة أساسا من شريط يتراوح طوله ما بين 1،90 متر و2،50 متر، ويتراوح عرضه ما بين 0،15 متر و0،23 متر، يثنى الشريط في وسطه ويخيّط في أحد طرفيه بواسطة شريط على امتداد 0،22 متر.

وبهذا يصبح الشريط الكلي عبارة عن لفّتين وبالتالي تصبح البنيقة مقسّمة إلى جزأين، الجزء الأول وظيفته تغطية الرأس والجزء الثاني عبارة عن ذيول تلفّها المرأة حول شعرها لتجفيفه بعد الحمّام،

وتـزيّن نهايـة الـذيول بـشريط مطـرّز عبـارة عـن تـشبيكات مخرّمـة بأشـكال هندسـية، انتـشر اسـتعمال البنيقـة في مـدن الجزائـر وقسنطينة وتلمسان ولكن بتسميات مختلفة، ففي مدينة قسنطينة تعرف بالكوفية، أما في تلمسان فتسمى بالقردون وتختلف عنهما بأنها لا تطرّز[69]. لقد ورد اسم صانع للبنائق الجزائرية والذي لم يجد من ينافسه فيها ويتعلّق الأمر بالصانع محمد الزلوني وكانت مصنوعاته تباع في كل البلاد[70].

ج- التنشيفة

هي قطعة من القماش مستطيلة الشكل، يبلغ طولها 2،60 متر، ويتراوح عرضها ما بين 0،40 و0،50 متر[71]. تغطي المرأة شعرها بها عند خروجها من الحمّام مباشرة وتجفّفه بها، عندها تنزعها لتضع مكانها البنيقة، زخارف التنشيفة وألوانها تشبه إلى حد كبير الستائر أكثر من البنيقة، تصنع التنشيفة عادة من الكتان ومطرّزة بزخارف منسّقة ومنظّمة، كما تصنع من نسيج رخو خاصة القطع التي تعود إلى القرن 12 هـ/ 18م[72].

لقد اعتنت المرأة الجزائرية بالتنشيفة إذ قامت بطرزها كليا باستعمال أجمل الألوان وتنفيذ أجود التقنيات وتزيين حوافها بأشرطة مطرّزة أو مخرّمة منفّذة بخيوط بيضاء أو ذهبية تتماشى والخيوط المستعملة في الأشرطة[73].

2- ملابس البدن :

أ- السترات :

تتميّز السترات الخاصة بالمرأة والرجل بالتنوّع والتعدّد، ونظرا لندرة سترات الرجال وغياب الأدلة سنقتصر على السترات النسائية فقط التي تنوعت أشكالها مثل الغليلة والقفطان والفريملة والكراكو.

ب- **الغليلة** (صورتان رقم : 3 و4)

هي سترة طويلة تصل إلى منتصف الساقين يلبسها الجنسان معا، فيما يخص الغليلة التي تلبسها المرأة فهي مصنوعة من قماش خفيف غالبا ما يكون أرجواني اللون يستورد من مدينة بلنسية الاسبانية، كما أنها تصنع من الساتان والقطيفة والديباج والدمشقي، لها عنق مجوّف وواسع بكثرة[74] ومزيّن بأزرار كبيرة مختلفة الأشكال، مصنوعة من الذهب أو الفضة، وأكمامها لا تتجاوز المرفقين، وهي مفتوحة من الأمام ولا تغلق إلا في مستوى البطن بأزرار ذهبية أو فضية، وبحلول القرن 13 هـ/ 19 م حذفت أكمام الغليلة وعوّضت بأخرى غير أصلية تكاد لا تغطي الكتفين[75].

صورة رقم : 3- غليلة بدون أكمام مصنوعة من الديباج

محفوظة بالمتحف الوطني للباردو - الجزائر-

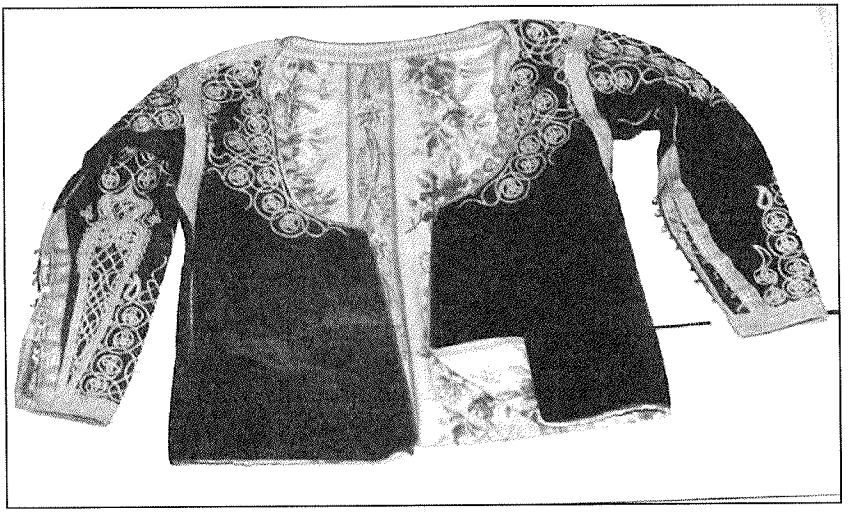

صورة رقم : 4- غليلة بأكمام مصنوعة من القطيفة

محفوظة بالمتحف الوطني للباردو – الجزائر-

كما لبس الرجل الجزائري الغليلة التي تصنع من الساتان والقطيفة والدمشقي والجوخ وهي مقتصرة على الحكام والأغنياء فقط، مفتوحة من الأمام ولا تغلق إلا في مستوى البطن، يصل طولها إلى منتصف الساقين أكمامها تشبه أكمام القفطان بحيث لا تتجاوز المرفقين وهي مزوّدة بأزرار كبيرة من الذهب والفضة[76].

ج- القفطان

يعتبر القفطان من ملابس الأبهة والفخامة في المجتمع، انتشر ارتداؤه في الجزائر عن طريق العثمانيين، إذ لم يكن معروفا في الجزائر فحسب وإنما انتشر في بلاد المغرب كلها مع العلم أن الأتراك أخذوه عن الفرس[77]، وقد لبسه الجنسان معا ولكنهما يختلفان من حيث الطرز والزخارف.

يصنع القفطان من القطيفة خاصة بالإضافة إلى الساتان والدمشقي وأنواع أخرى من الحرير(78)، يحتوي على أكمام قصيرة مفتوحة على هيئة نصف دائرة لتسهيل الحركة، إذ يصل طوله إلى منتصف الساقين، مفتوح من الأمام لتظهر الملابس الأخرى. يطرّز القفطان بالذهب والفضة في مستوى الكتفين ومن الأمام وفي الأكمام، وهو مزوّد من جهتيه بأزرار كبيرة مصنوعة من الخيوط الذهبية أو الفضية موضوعة للزخرفة فقط ويغلق بزرين موضوعين في مستوى البطن[79]. وبحلول القرن 13 هـ/ 19م تغيّر شكل القفطان فأصبح طويلا يصل إلى غاية القدمين[80].

د- الفريملة

الفريملة هي عبارة عن سترة قصيرة ضيّقة بدون أكمام مفتوحة من الأمام بحيث تغلق بواسطة زر واحد فقط في ناحية الصدر[81]، ومزيّنة في تقويرة العنق بأزرار صغيرة من الذهب أو الفضة أو مصنوعة من الصدف والمعدن الثمين كما أنها تغلق بمشبّكات عديدة، وبالتالي فهي لا تحوي على عروة الزر، تغطي الفريملة نصف الظهر ولا تتعدى مستوى الكليتين ولا تصل إلى الصدر بالمرّة من الأمام، وتكون من الأمام عبارة عن رباطين معقودين ومن الخلف عبارة عن رقعة مربّعة[82]، أكمامها قصيرة وصغيرة بها أشرطة عريضة زخرفية من الذهب أو الفضة[83]، وأحيانا تكون بدون أكمام على الإطلاق.

يتبيّن من طريقة الاستعمال أن الفريملة كانت تلبس لغرضين، وهو أنها تلبس لرفع النهدين وكذلك لسند أكمام القميص التي كانت تربط في الظهر تسمح للمرأة القيام بشغلها سهولة[84].

هـ- الكراكو

هو عبارة عن سترة مفتوحة من الأمام، تغلق بواسطة دبابيس أو مشبّكات أسفل الخيوط التي لم تعد سوى زخارف، يصنع الكراكو من الحرير أو القطيفة، ويطرّز بالذهب أو الفضة بالإضافة إلى زخرفته بقياطين تعلّق في خيوط ذهبية[85].

و- الجبادولي

هو سترة خاصة بالرجل فقط تشبه الغليلة إلى حد كبير، يصل طولها إلى الورك، لكنها لا تغلق من الأمام تحتوي على أكمام

واسعة ومشقوقة مزخرفة بأزرار وعروات، يصنع الجبادولي من القطيفة المطرّزة بالذهب والمزيّنة بأشرطة مضفورة، يلبس من طرف أغنياء المدينة وحكامها تمييزا عن بقية طبقات المجتمع[86].

ز- الأحزمة والحاشيات

- الأحزمة

تلبس الأحزمة من طرف الجنسين، وهي عبارة عن أشرطة عريضة تنتهي بأهداب طويلة متكوّنة من ضفر خيوط السدى التي تترك حرة بعد عملية النسج، تمزج فيها خيوط الذهب والفضة بالإضافة إلى رقاقات الزركشة المصنوعة من المعدن، كما تصنع أحزمة من الصوف بحيث تنسج على حبال من القنب وتعرف في هذه الحالة باسم التكة[87].

وقد عرفت الأحزمة الجزائرية بنوعيتها خاصة المصنوعة من الذهب والفضة والتي كانت تصدّر إلى بلدان المغرب والمشرق[88]. ووجدت أنواع من الأحزمة تعرف باسم الشاوشي وأخرى باسم الكريتي نسبة إلى جزيرة كريت، كما عرفت أحزمة باللون الأزرق، وأحزمة تسمى ضامة لاحتوائها على مربّعات وأول من صنعها هو الصانع بوبرينسة الذي انتقل إلى مدينة تونس في آخر أيامه واستقرّ بها وعلّمها لأهل تونس[89]، وبالتالي انتشرت الصناعة الجزائرية في تونس، كما ذاعت أسماء حرفيين ارتبطت بصناعة الأحزمة الذهبية والتي تدل على وجود صناعة رائجة وذات جودة عالية.

- الحاشيات

تعتبر الحاشيات من أهم المصنوعات النسيجية، خاصة ذات اللونين الأرجواني والبنفسجي والتي تتميّز بلمعانها وصلابتها مقارنة بتلك المصنوعة في أوربا، ويرجع السبب في ذلك إلى نوعية المياه الجزائرية لذلك تباع بأغلى الأثمان. يستهلك منها بدرجة كبيرة في كل البلاد خاصة في زخرفة الستائر والملابس النسائية بصفة عامة والقمصان بصفة خاصة[90].

الهوامش :

(1) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة : إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 268.

(2) صلاح حسين العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980، ص68.

(3) Ricard P., Les arts et les industries indigènes du nord de l'Afrique, Fès, 1918, p. 283.

(4) عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العهد العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص 102.

(5) Denny W., l'art décoratif ottoman, De Noel, Paris, 1982, pp : 121-122.

(6) Lombard M., Les textiles dans le monde musulman du 7 au 12 me siècle, Paris, La Haye, New York, 1978, pp : 44-45.

(7) Ibid., pp : 50-51.

(8)Rozet M., Voyage dans la régence d'Alger, t. 2, Alger, 1833, p. 171.

(9) Lombard M., Op. Cit., p. 61.

(10) كوثر الزغبي وإنصاف نصر، دراسات في النسيج، ط.4، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، ص 22.

(11) Poiret A., Voyage en Barbarie, Paris, 1789, p. 79.

(12) Allard M., Considérations sur la difficulté de coloniser la régence d'Alger, Paris, 1830, pp : 35-36.

(13) Lombard M., Op. Cit., p. 29.

(14) Rozet M., Op. Cit., t. 2, p. 171.

(15) موريس لومبار، المرجع السابق، ص 272.

(16) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 69.

(17) Anonyme, De l'industrie sérigène en Algérie, extrait des annales, de la société naturelle et des arts utiles de Lyon, S.L.1851, pp : 3-8.

(18) Allard M., Op. Cit., p. 41.

(19) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 69.

(20) **الديباج** : هو النسيج المعروف بالفرنسية « Brocart »، وقيل أنه النمط أو الرفرف أي الثوب الرقيق حسن الصنعة، وما رق من الحرير فهو ديباج، كما عرف الديباج على أنه نسيج من الحرير مختلف الأجناس استعمل كثيرا في العصور الوسطى في الشرق. لقد تضاربت الأوصاف إلى الحد الذي أصبح من المستحيل معرفة الديباج عن غيره من باقي المنسوجات.

(21) سعاد ماهر، النسيج الإسلامي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، القاهرة، 1977، ص 106.

(22) صلاح حسين العبيدي، المرجع السابق، ص 69.

(23) Roux A., Les tissus d'art, Paris, 1931, p.56.

(24) رضا صالح وعبد المنعم صبري، معجم مصطلحات الصناعات النسيجية، القاهرة، 1975، ص 246.

(25)Le Loir M., Dictionnaire du costume et de ses accessoires, des armes et des étoffes, des origines à nos jours, Paris, 1951, p.375.

(26) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 107.

(27) Roux A., Op. Cit., p. 56.

(28) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 68.

(29) Eudel P., L'Orfèvrerie algérienne et tunisienne, Jourdan, Alger, 1902, p.107.

(30) **القديفاجي** : هو صانع القطيفة التي يلفظها الأتراك العثمانيون القديفة، انظر Ben Cheneb M., Mots turks et persans conservés dans le parler algérien, Alger, 1922, p. 68.

(31) عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق، ص 107.

(32) موريس لومبار، المرجع السابق، ص 273.

(33) Guiauchain G., Alger, imprimerie algérienne, Alger, 1909, p. 119.

(34) Lombard M., Op. Cit., pp : 129- 130.

(35) Anonyme, De l'industrie sérigène..., p. 13.

(36) Bel A. et Ricard P., Le travail de la laine à Tlemcen, Alger, 1913, p.13.

(37) التهامي عبد العزيز عائشة، النسيج في العالم الإسلامي منذ القرن 8-11 ه/ 14-17 م، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2003، ص 150.

(38) Lombard M., Op. Cit., p. 118.

(39) رضا صالح وعبد المنعم صبري، المرجع السابق، ص 258.

(40) عائشة عبد العزيز التهامي، المرجع السابق، ص 150.

(41) Lombard M., Op. Cit., p. 118.

(42) رضا صالح وعبد المنعم صبري، المرجع السابق، ص 258.

(43) Monlau J., Op. Cit., p.111.

(44) **دراز** : ورشة النساجين مأخوذة من كلمة ترزي التي تعني الخياط، أنظر : Ben Cheneb M., Op. Cit., p. 204.

(45)Poiret A., Lettres de Barbarie, Paris, 1980, p. 79.

(46) Eudel P., Op. Cit., p. 204.

(47) يعرف صناع هذه الملبوسات باسم **قاوقجي** وقد اختصوا في صناعة الشاشية المخروطية الشكل التي تلبس في قسنطينة وتلمسان، أنظر : Ben Cheneb M., Op. Cit., p. 67.

(48) Anonyme, Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger, 2 ème édit., Paris, 1830, p. 175.

(49) Venture de paradis., Alger au 18 è Siècle, 2ème édit. Bouslama, Tunis, 1980, p.123.

(50) يعرف صانع الفوطة بالفوطاجي. أنظر : Ben Cheneb M., Op. Cit., p. 64

(51) Shaler W., Esquisse de l'état d'Alger, Paris, 1830, p. 92.

(52) Estry S., Histoire d'Alger, Tours, 1841, p. 130.

(53) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 69.

(54) وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة : زبادية عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 89.

(55) **الدرة** : تسمى كذلك درّعة أو درّاعة، وهي ضرب من الثياب وقيل جبة مشقوقة المقدّم أو هي ضرب آخر لا يكون إلا من الصوف.

(56) Esquer G., Le costume algérois d'après un ouvrage récent, Alger, 1931, pp : 8-9.

(57) **الفوطة** : هي عبارة عن قطعة قماش تلبسها المرأة تعقدها في مستوى البطن بحيث تبدو مفتوحة من الأمام وهي بذلك تشبه التنورة.

(58) شريفة طيان، ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1991، ص 169-170.

(59) Dozy R., Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les arabes. Amsterdam, 1849, p. 371.

(60) Marçais G., Le costume musulman d'Alger, collection du centenaire, 1830-1930, p. 72.

(61) Ibid.

(62) Dozy R., Op. Cit., p. 323.

(63) Eudel P., Op. Cit. , p. 107.

(64) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 70.

(65) Ouagouag- Kezzal C., « Le costume et la parure de la mariée de Tlemcen », in Libyca, t.18, 1970 ,p.260.

(66) Berbrugger A., Algérie historique pittoresque et monumentale, t.1, Paris, 1843, p. 13.

(67) Millot S., Le costume du vieil Alger, Alger, 1921, p. 4.

(68) Boyer P., La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Hachette, Paris, 1963, p. 156.

(69) Marçais G., Les broderies turques d'Alger, reprinted from ars islamica, vol. 4, 1937, p. 147.

(70) Eudel P., Op. Cit., p. 208.

(71) Ibid.

(72) Wace A.J.B., Catalogue of algerian embroiederies, London, 1935, p. 14.

(73) شريفة طيان، المرجع السابق، ص 123.

(74) Haedo F.D., « Topographie et histoire générale d'Alger », Trad. De Monnerau et Berbrugger, in Revue africaine, 1871, p. 107.

(75) Marçais G., Le costume ,...p. 97.

(76) Venture de Paradis, Op. Cit., p. 36.

(77) Miquel A., L'Islam et sa civilisation du 12 au 20 é siècle, Colin, 1968, p. 274.

(78) Dozy R. , Op. Cit., p. 163.

(79) Venture de Paradis, Op. Cit., p. 37.

(80) Marçais G., Le costume..., p. 99.

(81) Ben Cheneb M. , Op. Cit., pp : 62-63.

(82) هاينز فونمالتسان، ثلاث سنوات إقامة في شمال غرب إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو ج.1، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 1973، ص 57.

(83) Dozy R., Op. Cit., p. 334.

(84) شريفة طيان، المرجع السابق، ص 109.

(85) Marçais G., Le costume..., p. 103.

(86) Ibid, p. 45.

(87) Renaudot M., Tableau du royaume de la ville d'Alger, librairie universelle, Paris, 1830, p.62.

(88) Venture de Paradis, Op. Cit., p.37.

(89) Eudel P., Op. Cit., p. 107.

(90) Venture de Paradis, Op. Cit., p. 121.